

المسبحة

الاب

ادا بان مقبلا لسراء سيء او مارا في الطريق . كذلك ارى ما يجري في سماء المسبح بين السمارع المرصوف وهذا السمارع .. سيارات تحطف حينها .. مارة .. نساء .. رجال .. فتية .. فتساب بنيايهم مدرسيه الملون يحملن لبهن ويشرن زوال الطريق . العادمون من الوجهه الاخرى لا اراهم حتى نعاجتني يد ممدودة بالنفود ، او صوت : ابو حاند باكيه زبد .. صابون تايد .. بطل بارد .. وما انسيه . لذلك عندما جاء ابو سلام من الوجهه المعاكسه لم اره حتى سد هيكله عني جردا من الضياء عند باب الكشك . ودف في مربع اظل صامما . مرحبا .. الا تدخل ؟ لا .. انا مستعجل .. يجب ان اذهب .. جئت من اجل ابني فقط . خيرا ؟ ماذا حدث ؟ لكنه لم يرد . اخرج سيجارة ، اشعلها وراح يدخلن ساهما . لم يضايفني ووفوه بباب الكشك فهو رجل كهل لا تتحرج من وجسوده النساء . وانشفلت عنه . جاءت امرأة اشترت شيئا وانصرفت ، ثم جاءت اخرى ، ثم جاء صبي . ولم يتحرك هو من مكانه ، حتى عندما انحسر الظل عنه وغدته الشمس باشعتها الصيفية الحارة . بعد فترة وجدته يرفع طرف سترته ويحنق هويلا في لطفه حبر جاعة داكنة تنتشر في قماش البطانة الملون اسفل جيب سترته الداخلي . ثم سمعته يتهم : فلم الحبر .. مكسور ! حاولت ان افرح معه : ما حاجه موظف متقاعد مثلي ومثلك لفلم الحبر !! ثم لعلك هذه الايام تكتب مطالعات لام سلام عن اسعار اللحم والخضرة ؟ لكنه لم يضحك .. حتى ولم يتنسم . اخرج سيجارة اخرى اشعلها وراح يدخلن بشراهه وكأنه ياكل لحم اصابعه . قربت رأسي منه قلنا : تكلم ! أرح صدرك .. هل حدث شيء لا سمح الله !! فتطلع الي . انا خانف وحائر ولا ادري ماذا افعل . انظرت ، لكنه عاد يدخلن ساهما . كلاب ! نعم ؟ كلاب تتعارك . اصخت السمع . في الساحة الخالية وراء الكشك ثمة كلاب تتقاتل بشراسة وشخيرها المتواصل يعلو وينخفض يتخلله نباح غاضب قصير لاهت وصوت احتكاك اجسام خشنة ولينة بعضها ببعض وصوتها وهي تشحط في التراب . يتعاركون من اجل عظمة ربما أو ربما من اجل كلبه . فليبي يحدثني انهما سيفترقان به . من يفسد به .. الكلاب !! نظر الي في دهشة وهز رأسه اني اتحدث عن ابني . ثم روى لي كلاما غريبا ، مضطربا ومشوشا . لم افهم منه الكثير . باختصار هو يظن ان حياة ابنه في خطر ، وان اصحابه سوف يقتلون به في النهاية . اثنان منهم بالذات ، ذكر لي اسميهما . وهو لا يعرف الاسباب ، وليست لديه ادلة . مجموعة ظنون فقط ، تولدت لديه مع الايام .. نتيجة كلمة من هنا وكلمة من هناك ..

اسئل يمشى على المدرس البحرية ، اسام ، يمشى مسدده من وضعت لبريا ، سس بساطه اسود مربع مسطيل . الهواء لا يزال يتحسس لسيه من رسوبه الصبح السدي مع عبق ارهار واعساب واوراق اسجار محلله من حذائق الدور أمجاوره . الموظفون عادوا بيوتهم منسد تنزه بعنى مصطربه عجنى لينحفوا انباص الاحمر العجوز دي الطابفين الذي يمر في الموح القريب . رافسهم وانا اجس بأسرحاء داخل الكسك ، سمعت صوري الى جداره الحسبي ممتنا بدراعي على غطاء صندوق المرسبات ، بما اسهل لى يوم ، يعمرني شعور هو مزيج من الانتفاة وانسفي .

الكشك يقع في منتصف سارح فرعي صغير لم يبلط بعد ، في نهايه دفعه أرضى عجز صاحبها عن بنائها واكفى باقامه جدار فسي واجهتها ببعزلها عن الدرب . ومع الايام انهارت اجزاء من الجدار فاخذ سدن بعض الدور يرمون بنفاياتهم في هذه انفسحه اثناء النهار . اما في الليل فيروى ان احدانا غريبة تجري في الظلام وراء جدارها المتداعي .

الدرب خال الآن من المارة . ومن مكاني استطيع ان ارى جيدا صف البيوت الصغيرة على اليسار ، ابوابها الواطئة ، بعضها مفلق وبعضها موارب يكسف عن مداخل مغممه . كنت ارى أيضا رؤوس الاشجار البادية من فوق الجدران ، وعند مدخل احد البيوت شجرة سرو هرمه استطلت فانطوى رأسها على نفسه اعياء ثم برمبل القمامة الملسية بالنفايات . وفي رأس السارح تماما ، قريبا من الجدار ، اشارة المرور ، أو الاصح اشارة الوقوف . عمود اسطوانى بطول متر ونصف أو اكثر قليلا في رأسه قطعة معدنية كبيرة مثمثة الزوايا كتب عليها باللون الابيض على ارضية حمراء (توقف) وتحتها كلمة STOP .

الاشارة تنتصب مثل شجيرة عباد الشمس بوردة كبيرة واحدة في نهاية ساقها الخديبية العارية . هذا السارح المترب يندر أن تمر فيه سيارة . لا بد أن العمال الكلفين ينصب الاشارة أخطاا المكان ، فهذا يحدث أحيانا ، فنجد اشارة توقف حيث لا ضرورة للتوقف ، في حين تنطلق السيارات كالصواريخ غير الموجهة في شوارع اخرى خالية من الاشارات . هذه الاشارة تضايفني أحيانا عندما اكون مقدا على اتخاذ قرار ويقع نظري عليها صدفة . مع ذلك لم اغير مكان جلوسي داخل الكشك ، وبقيت اواجه مدخل السارح اذ اني استطيع ان ارى - من مكاني هذا - كل قادم ، واتابعه خطوة خطوة ، اتفحصه جيدا قبل وصوله الى الكشك ، واعرف من مشيته واتجاه نظراته ،

ملاحظات مبطنه و (نظرات مريبة) واشارات .. وما أشبه ، ولهذا فهو لا يستطيع ان يذهب الى الشرطة ، لكنه واثق تماما - رغم افقاره الى الادلة الممنمة - ان خطرا كبيرا يتهدد ابنته . يذهب هاجس قوي (مثل وخزة لجوجة في القلب) . وعندما فرغ من كلامه نظر الي في ضراعة : حاول ان تكلمه انت .. تقفقه بالابتعاد عنها قبل فوات الوقت .. أرجوك .. لهله يستمع اليك .. فهو لا يستمع الي . ثم تركني في حيرة وانصرف .

الابن وصاحبه الابله

قبل الظهر بقليل جاء الابن ومعه صاحبه ابله . يبدو سميدا ومرحاً . تذكرت وصية ابيه . ابوك كان هنا هذا الصباح وهو .. طعمني .. انظر ! ارى هذه المسبحة في يد صاهر ؟ انصت نظرة سريعة على المسبحة انني كان الابله يمضج بحبيباتها المصقوفة الصفراء بين اصابعه مسرورا ثم عدت اقول له . ابوك كان هنا وهو فلق .. هذه المسبحة كادت تطلق لنا مشكلة لو لم احضرت بسرعة . دعنا من المسبحة الان واسمعي ارجوك .. لكنه اصر .. سوف اسمعك بعد ان سمعيني . وجهه الواثق المطمئن لا يكثر نسيه . عيناه تشعان بفرح من حقيق انتصارا لسهه ، ولم يكن من السهل صده عن الافشاء بما تديبه . حسنا .. تكلم ! قبل قليل كنا نجلس في المقهى .. انا وظاهر .. وامامنا يجلس صاحب هذه المسبحة .. وحيدا .. في ركن احد التختات .. واضعا رجلا على رجل .. عيناه تنظران في الفراغ فوق الرؤوس .. ساهما .. يفكر .. بزوجة مريضة ربما .. صفقة تجارية انتهت بالخسارة .. او لعله كان يخطط لافشاء زوجة جاره .. لا ادري فكثيره هي الهموم التي يضر فيها الجانسون صامنين في المقاهي . كانت اصابع الرجل تعض بحبيبات المسبحة بحركة بطيئة رتيبة .. نكاد تكون لا ارادية .. كانت الاصابع تجهد احيانا لبضع تواتر عندما يعنور وجه الرجل نوتر مفاجيء لسبب من الاسباب ، ثم تعود لحركتها البطيئة الرتيبة من جديد . ووجهه نهض طاهر من مكانه ابي جانبي ، تقدم نحو الرجل لاساهم بخطف سريعة ، وخطف المسبحة من بين اصابعه . وقف الرجل ذاهلا باديء الامر كمن اعطاه ذوي انفجار .. وفي اللحظة التالية احمر وجهه غضبا .. رفع يده ليضع بها وجه طاهر فاسرعت احتضنه ، وهمست في اذنه .. ان صاحبي مجنون ولا يدري ما يفعل .. فيان الارتباك في عينيه .. بقيت ذراعاه معلقة اهل من نائية ثم سقطت الى جانبه مثل غصن وطع من اسفله بضربة فاس وبقي معلقا باللحاء في جذع الشجرة . لكنه بقي مترددا . ثم يصدهني ساما . حثق في عيني لحظة طويلة دون ان في عينيه شبكات لحظة اطول . فبدأ عليه اخيرا انه صدهني . لكنه قال مستنكرا ومعاتبا .. وهل يترك ليفعل ما يشاء لانه .. فاسرعت اضع يدي على شفتيه المرجفين .. لا .. لا تغلقا ارجوك .. فهو لا يجب ان يسمعها من الشراء ! جلس الرجل على التخت مستاء . حسنا .. استرجع المسبحة منه . حاولت مع طاهر بشتى السبيل لكنه ظل متشبها بها بعتاد . بقيت حائرا بين الاثنين . ماذا افعل ؟ الاثنان يريدانها . فكرت قليلا ثم قلت للرجل .. اشترتها منك . لم يوافق في البدء ، لكنه - بعد فترة - عندما رأى وجه طاهر الصافي والعنيد في نفس الوقت ، كوجه طفل انتزع لتوه لعبة من يد طفل اخر ، ادرك تماما انه لن يحصل عليها مرة اخرى .. وهكذا اشتريتها منه بدينارين .. فما هو رأيك ؟ اردت ان اقول له انك مجنون انت ايضا ، لكن وجهه البريء الرفوع الي بفرح طفولي جعلني امسك عن ابداء رأيي فيه . لبضع لحظات كنت انا نفسي مأخوذا بكلماته .. الفظة التي كانت تضيء وجهه ملأت صدري انا ايضا .. لكنني تذكرت من جديد قلق ابيه . والان يجب ان اسمعي انت . نعم .. عساذا تريد ان تقول ؟ ابوك كان هنا هذا الصباح وهو قلق . انه دائسا واثق لكن هل سألته لماذا ؟ هذا بالضبط ما اريد ان احديثك عنه . ليس

الان .. فانا على موعد ويجب ان اذهب . ونظر الى ساعته ، ثم سحب طاهر - الذي بقي صامتا طوال الوقت يعبت بالمسبحة الصفراء في يده ويبتسم في رضا - ومضى ملوحا بيده . اطمئن .. سارك العصر ! وافلت مني كما يفلت الماء من بين الاصابع .

الابن يعود العصر مع صاحبيه

سياراتهم القديمة السوداء تقف في رأس الشارع . اسمع صوت محركها الصاخب ليضع تعذات تم ينطوي معلقا سكوتا غريبا كتشفه الاذن لأول مرة . يهبطون . يدخلون الشارع الفرعي الواحد وراء الاخر كأفراد دوريه ليلية . الابن في المقدمة ، داسا يديه في جيبي بنطولونه يسير مطمئنا والاخوان وراه ، الاكبر ثم الاصغر . احد الاخرين يقول تسيبا . يوقعون . يعود الاخوان الى اشارته الوقوف في رأس الشارع . الابن يفي في مكانه . يقول لهما تسيبا ويلوح بيده . يبدو عليه انه يحاول ان يمنعهما عن اتيام بشيء لكنهما لا يعبان به . يفتان متقابلين على جانبي الاشارة ، يمسكان بسانها باذرع قوية تحت الرفعة اتمننه تاما ، ويبدأن بهز الساق . العمود لا يطاوعهما شي ابدء . بعد قليل من التدفع والجر المتواصل يتفتن التراب في الاسفل ويبدأ انجذع بالاهتزاز . يلقي عابرو السبيل نظرات مستنكرة مندهشة على ما يجري ، ويواصلون ترفيقهم .. بعضهم يتوقف قليلا .. لكنه لا يلبث ان يمضي مسرعا في صمت . ينجتمع عند من الصبية يرفيون ما يجري في حماس .. اصواتهم المشجعة ترتفع . الابن يتقدم من احد الاخوين ، يضع يده على كتفه ليمنعه مسن الاستمرار ، لكن الاخر ينفض اذنه انفاة على كتفه بعنف فيتراجع الابن يائسا ويكف عن محاولة منعها . الاشارة تنفوخ الان .. ويريز طرف من جمعها من بين التراب انفضت النهار . يتماوانا عليها ، ينتزعانها من حفرتها الترابية ثم يلقيان بها ارضا بجانب الجدار .. شجرة حديدية صغيرة مينة جذرها الاسمتي المنحجر العاري المليء بالنتوء يسنقر بشتات عند حافة الجدار نظيه في بعض المواضع طبقة خفيفة من اسراب . الجانب المنحوب من انورقة الحديدية يتوجه الان الى السماء . يسمح الاخوان انهما في ظهور بناظليهما ويتقدمان صوب الكشك . يهز الابن رأسه في استياء ولكنه ينضم اليهما . الصبية في رأس الشارع يدوسون باحذيتهم على الاشارة . يحاولون زحزحتها من مكانها ثم يقفون انهمامهم بها وينصرفون . يقول الابن عندما يصلون الى الكشك .. اعطنا باردا .. قتلنا العطش . يتطلع الاخ الاكبر ابي ضاحكا .. خلعتنا الاشارة التي تمنعك من الحركة .. تستطيع ان تلتفت الان في اي اتجاه تريد .. بكل حرية .. مثلنا .. فالامر بالتوقف ليس موجها اليك هذه المرة ، بل الى السماء . يضحك الاخر .. لا فائدة .. لن نستطيع ان يتحرك مثلنا فالاشارة مزروعة في داخل رأسه .. جذورها تور في الخيخ . حملها معه الى الدنيا وهو ينزلق صارخا من رحم امه اندائي الليل اندامي . الابن ينظر الي معتذرا .. لا عليك .. اهما طيبان .. لا يقصدان سوءا . ويتكشف لي فجأة ما يعنيه الاب بالهاجس القوي الذي يعذبه مثل وخزة لجوجة في القلب .. احترت من الابن .. اقول بصوت واطيء .. كنت على عجل هذا الصباح فلم تدعني اكل حل حديشي معك .. تكلم الان ! لا .. يجب ان اكلتلك على افراد .. لماذا على افراد ؟! يرتفع صوت الاخ الكبير .. يبدو ان في الامر سرا لا يريدنا نطلع عليه . يعقب الاخر .. ربما وجد ته عروسا ! هل تريدنا نذهب ونترك وحيد معه .. يتظاهران بالانصراف . لا .. لا . يتشبت بهما . يلتفت الي في نفاذ وصير .. تكلم فنحن اخوة .. لا توجد بيتنا اسرار . الوجهان جامدان كصخرتين او كوجهي صخرة واحدة . يرمي الكبير الزجاجاة الفارغة الى الارض ، ترتطم باسفل الكشك . انا اعرف ما الذي يريد ان يقول . ماذا ؟ انه ببساطة يريد ان يحذرك . يحذرنني ! من ماذا؟! ينحني عليه ويهمس في اذنه كلاما ، ثم يتراجع وابتسامة غريبة ترف

عادل اديب آغا إنها الكلمة... إنه للموت

الى الشهيد غسان كنفاني

- ١ -

انها الكلمة القاتلة
والصدي .. والفراغ
يا ابنتي .. ثم كان الرحيل
خطوة .. خطوة
ثم جاء السقوط
مرة من بروج العذاب الجميل
مره في لظى الذكريات
ثم ظل السقوط - السقوط الطويل
مالحا في دم الامهات

- ٢ -

صار وجهي علامة ..
فوق جلد التراب
ويدي المشرعة
سقطت في محطة الانتظار
ومضى يا ابنتي القطار
قلت اعدو وراءه ..
انما ..
كان وجهي علامة
فوق جلد التراب .

- ٣ -

مرة نمت جائعا
جاءني هاتف بعيد
صامتا يحمل الغضب
دار في داخلي ..
انتحب
قلت تفديك حنجره
عندها استل حنجره
فأفقت :
ذاهلا نازف الجبين

- ٤ -

دائما كنت وحدي الغريب ..
وكنت الوحيد .
حين اعلنت وجهي وصحت :
أفتش عن أصدقاء
سخرت من ندائي المفاجيء ..
كل خيول الظهيرة ..
كل طيور المساء
حاصرني العيون الخبيثة .
وأنا كنت وحدي الغريب
وكنت القليل الوحيد
هكذا صار نرني اتهاما ..
وجلاذ حلمي يبكي علي ..
ويحمل أسم الشهيد .

في عينيه . يشهق الابن في دهشة .. انت تمزح ! لا .. ابدا ..
اسأله وسنرى . يلتفت الابن الي صاحكنا . لماذا لا نقول ما عندك ..
قلت لك ليس بيننا أسرار . لا بأس .. ثم يعد لدي شيء افوله .
أرأيت .. ليس لديه ما يقوله ؟ يرمي الاخ الاصفر أنزجاجة الفارغة
وراء ظهره ، تندرج على الارض مبتعدة . يقترب من الكشك ، يسند
ذراعه على القاطع الخشبي ويقرّب وجهه مني .. انفاسه الحارة على
وجهي .. هل حذرك سلام عن المسبحة ؟ نعم .. حدثني . ألا نرى
انه ملاك ؟ نعم . يحمر وجه الابن خجلا . يعقب الاخ الاكبر .. لكن
الملائكة مكانها في السماء لا على الارض .. ألا تتفق معنا ؟ تند عن
الابن ضحكة صغيرة مرتبكة . ورغم حرارة الهواء اشعر فجأة برعشة
برد تخترق النخاع كالنصل . يلتفت الاصفر الى اخيه :

انه لا يتفق معنا ..

ولا يبوح بما لديه ..

ووجهه مظلم ..

وينتصب كنيبا كشاهد قبر ..

وفانم كجذع شجرة محروقة ..

وهو متضامق من وجودنا .. أندري لماذا ؟

لماذا ؟

لان النساء يتخرجن من الاضراب من الكشك اذا راونا .. يخجلن
.. فنحن نفترسهن اذا افتربن .. هكذا ! يقوس الاخ الاكبر ظهره
قليلاً .. يرفع كفيه شاهرا اصابه كالمخالب .. يرغو .. هم هم هم
٢٢٢ ..

يضحك الابن خجلا . يضيف الاخ الاصفر .. نحن نفترسهن في
صخب . اما هو فيفترسهن في صمت ! يهنرض الابن . انتما تضايقانه.
صحيح .. فهو يكاد يفمي عليه ..
ويفرغ ما في جوفه ..

عما في الكشك .. أغفر لنا ذنوبنا .. ما تقدم منها وما
تاخر .. وسدد خطانا .. فنحن لا ندرى ما نفعل ..

همس سلام في اذن صاحب المسبحة : ان صاحبي مجنون ..
ولا يدري .. هوووه هوووه .. يمسك بطنه بيديه ويتلوى متظاهرا
بانّه يموت من الضحك .

STOP . .. هكذا يكفي .. لنذهب نثرثر فسي الساحة
الخالية وراء الكشك .. ونتركه وعمله .. اني ارى امرأة فادمة ..
يتعدان .

يتاولني الابن زجاجته الفارغة صامتا .. يدفع ثمن البارد .. ثم
يتبعهما . قبل ان يختفي وراء الكشك من فتحة الجدار المهدم يلتفت
الي مواسيا :

لا تفضب منهما .. انهما يهزحان معك !

تقترب المرأة .. تشتري شيئا وتمضي . اغادر الكشك ..
اجمع الزجاجتين الفارغتين من الارض .. اعود الى مكاني .. رأسي
يدور .. صمت في الخارج ودوي في الداخل .. لا اسمع شيئا في
الخارج .. بعد فترة .. وقع اقدام مسرعة .. اطل برأسي ..
الاخوان يركضان باتجاه سيارتهما السوداء الجانمة في مدخل الدرب
.. يركبان .. يرتفع صوت المحرك .. تنطلق السيارة مبتعدة وعجلاتها
تصرخ على الارض .. لماذا يتركانه ؟ تمر لحظات .. اراه يخرج ..
يمشي مترنحا كالتمثل .. يتوقف .. يخلع سترته ويرميها بعيدا عنه
كمن يعذبه حر شديد .. ينشب اصابه في فتحة القميص يحاول
تمزيقه .. يشهق .. عمي ابو خالد .. الحقني ! ثم ينهار على
الارض . عندما اصل اليه اجده منكفئا على وجهه يتمسك على
الارض بكل قامته ، دون حراك .. مثل اشارة الوقوف الملقاة باهمال
في رأس الشارع .. اجلس على التراب بجانب الجثة وابكي .
بغداد